كلمة التحرير

منهج تحليل المفاهيم القرآنية

هيئة التحرير

تحليل المفاهيم مبحث مشترك بين اللغة والمنطق وفلسفة العلوم، غير أنَّ فقهاء اللغة يضعونه على قمة أولوياتهم. وواحدة من طرق تحليل المفهوم لديهم هي أن يعودوا به إلى جذره اللغوي؛ أي إلى المصدر الذي اشتق منه. والمصادر هي أسماء تدل في وضعها الابتدائي على حوادث تكمن أو تنطلق من الفاعل (مثل قولهم كتب، يكتب، كتابة)، ولذلك فهي تصلح أن تكون مادةً للاشتقاق؛ إذ يستطيع اللغوي الماهر أن يقلِّب جذر الكلمة تقليباً يثمر معنى، أو حدثاً، أو عملية جديدة. وأثناء عملية التقليب هذه يصبح المعنى الأساسُ لجذر الكلمة عنصراً ناظماً وموحداً، ترد جميع المعاني المشتقة منه وتنسب إليه، تماماً مثلما يرد أعضاء الأسرة الواحدة وينسبون إلى أبيهم أو جدهم الأعلى. فكما أن جميع أعضاء الأسرة يشتركون في حد أدنى من الصفات والخصائص، التي تستمد من الرحم الأول الذي ولدوا منه، بحيث يمكن لأي منهم أن يعكس سمة من سمات الآخرين الذين تتكون منهم الأسرة، فكذلك الحال مع المعاني التي تتولد من جذر واحد للمفردة العربية.

فإذا أخذنا على سبيل المثال مصدر الفعل الثلاثي "كتب"، وبحثنا عما عسى أن يشتق منه، فسنجد: الكتاب، والكاتب، والمكتوب، والمكاتبة، والكاتبة، والتكاتب، والكتابة. وكلها أسماء تحتوى على حد أدنى من المعنى الذي يوجد في المصدر. وهكذا، نلاحظ أن مفردات اللغة العربية ليست مفردات متناثرة فحسب، بقدر ما هي مفردات تنتمي إلى حقول، أو إلى مجموعات من الأُسَر وذوي القربى. وحينما تتدرج من جذر الأسرة إلى أحد أفرادها، ثم إلى أصهارها، ثم إلى بعض "أولي القربى" فإنَّك في هذه الحالة تقوم بعملية "تعميم"، متجاوزاً الأفراد إلى الجنس. وعملية "التعميم" هذه هي واحدة من

طرائق "صناعة المفهوم"؛ إذ ينتصب فيها المفهوم جنساً عاماً، تنضوي تحته جزئيات كثيرة.

ولكن الإشكال في مثل هذه الطريقة الاشتقاقية أنها لا تكون مثمرة مع كل الجذور اللغوية، كما هو الحال مع الجذر (ص ل ح)؛ إذ يتضح في بعض الأحيان أن جذر بعض الألفاظ لا يمكن تحليله واستمداد اشتقاقات مفيدة منه، ولعلَّ ذلك هو السبب الذي جعل بعض اللغويين الأفذاذ، مثل ابن جنّي، يبتدعون مفهوم الاشتقاق الأكبر،[١] وهو تقنية مبتكرة يستطيع اللغوي من خلالها أن ينتزع من الحروف المكونة لجذر الكلمة لفظا آخر يناسب معناها، ولكنه يزيد عليه بالكشف عن وجوه جديدة من المعاني، أو وجوهاً جديدة من النظر إلى الأفكار والموضوعات.

أمَّا إذا لم تفلح الطريقتان، فإنَّ الباحث سيكون مضطرا لمغادرة نطاق علم الاشتقاق (نطاق البناء الحرفي للكلمة) إلى نطاق علم الدلالة؛ إذ يمدُّ النظر في الجملة بأكملها؛ أي في مجمل البنية اللغوية التي يرد فيها اللفظ الذي يراد تفسيره. وهذا التركيز على العلاقات التي توجد في "داخل لغة النص" لا يُعدُّ أمراً جديداً؛ إذ إنَّ كلَّ اللغويين يدركون أنَّ بعض "أبعاد" المعنى يمكن أن تُؤدَّى من خلال التركيب اللغوي الذي تشارك فيه عناصر لغوية متعددة. وذلك من خصائص الأدب العربي الرصين الذي يعتمد عليه كثير من المفسرين ويستفيدون منه في تفاسيرهم للقرآن.

غير أنَّ هذه الطريقة قد تكون أيضا غير كافية في بعض الأحيان؛ لأنَّ القرآن لا يمثل نصاً بسيطاً، كما أنَّ أسلوب البيان القرآني يتضمن في بعض الأحيان إيجازاً أو حذفاً أو التفاتاً، كما يتضمن في أحيان أخرى إحالات إلى آيات معينة، تقف بذاتها نصوصاً تفسيرية في داخل النص. ولذلك فإنَّ قارئ القرآن الذي يعجز عن رؤية مثل هذا "التداخل النصّي"، سيعجز أن يرى المعنى الأعمق الذي يوحي به النص. وهذا ما يدفع من يريد أن يتدبر معاني مفردة قرآنية أن يتحول من تفحُّص بنية الألفاظ والتراكيب اللغوية (علم الاشتقاق والنحو) إلى تفحُّص البنية القرآنية الكلية.

[١] ابن جني، أبو الفتح عثمان. **الخصائص**، تحقيق: محمد علي النجّار، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٥٧م، ج١، ص١٢.

وبالطبع فإنَّ الحديث عن "بنية قرآنية" يتضمن عدداً من الافتراضات منها: أنَّ القرآن ليس مجموعة من الألفاظ والجمل المتناثرة، وإنما هو ظاهرة بنيوية تشتمل، مثل كل الظواهر، على بنية داخلية متماسكة؛ وأنَّ ألفاظ القرآن وآياته تحتل مواقع "محسوبة" في داخل تلك البنية المشار إليها؛[٢] ولذلك فالسمة الغالبة للقرآن أنَّه يفسر ذاته بذاته، من خلال اصطلاحات وعادات انفرد بها، كما يقول ابن عاشور،[٣] أو من خلال "قاموس قرآني" خاص، كما يقول محمد أبو القاسم حاج حمد؛[٤] أي إنَّ القرآن يفسر نفسه بالإحالة إلى شبكات من المفاهيم الداخلية المترابطة، التي قد لا يتسع لها السياق المباشر. ومثل هذه الإحالة يمكن أن توفر إيضاحات إضافية مفيدة؛ وأنَّه في حالة تعذُّر استنباط معلومات كافية من البنية القرآنية الداخلية، فإنها قد تحيل -عن طريق الاستعارة والمجاز ونحوها- إلى "البيئة" الأوسع التي تحيط بالنص، والتي يمكن أن تستمد منها إيضاحات يكتمل بها المعنى. هذه "البيئة الأوسع" قد تكون البيئة الثقافية، أو الاجتماعية التي جرى فيها الخطاب، أو البيئة الطبيعية التي تحيط بهما جميعا.

---

[٢] لقد لاحظ بعض المفسرين الأوائل هذه الخاصية، فأفردوا لها علماً خاصاً أسموه علم "المناسبة". يقول عنه الزركشي(ت٧٩٤) "وهو علم شريف...وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيتقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم، المتلائم الأجزاء" انظر:

– الزركشي، بدر الدين. **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: دار الجيل، ١٩٨٨م، ج١، ص٣٥-٣٦. وقد سار على هذا الاتجاه من التفسير عدد من المفسرين والمفكرين اللاحقين، فلاحظوا أن معاني السورة القرآنية تمثل بنية متماسكة، وأن كل مفردة قرآنية تحتل موقعا محسوباً في الإطار الكلى للسورة، وقد قدّم الدكتور محمد عبد الله دراز (ت١٩٥٨) دراسة تفصيلية رائدة في هذا الصدد، حاول فيها أن يثبت من خلال تطبيقات عملية أن معاني السور القرآنية تلتحم "كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان"، انظر:

– دراز، محمد عبد الله. **النبأ العظيم**، قطر: دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٧م، ص١٤٠ وما بعدها. وانظر بصفة خاصة دراسته التطبيقية لسورة البقرة في الكتاب ذاته، ص١٤٨-١٩٤، وقد سار في هذا الاتجاه كل من الدكتور طه جابر العلواني والأستاذ محمد أبو القاسم حاج حمد، فكتب كل منهما عن "الوحدة البنائية" للقرآن، وجعلاها إحدى المحددات الضرورية في المنهجية المعرفية في القرآن، انظر:

– حاج حمد، محمد أبو القاسم. **العالمية الإسلامية الثانية: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة**، بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٩٦م، وانظر بصفة خاصة مقدمة الكتاب المطوّلة التي كتبها د. طه جابر العلواني.

[٣] ابن عاشور، محمد الفاضل. **التفسير ورجاله**، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر، ٢٠٠٨م، ص٢٠٤.

[٤] حاج حمد. **العالمية الإسلامية الثانية**، مرجع سابق، ص٥٧.

ونحن لا نحاول بتبني هذا المنهج أن نتخطى اللغة، ولكنا لا نريد في الوقت نفسه أن نحصر نظرنا حصراً مطلقاً في ألفاظ اللغة، كما يفعل بعض أصحاب المدارس النقدية الجديدة°. سيتركز نظرنا إذن على العلاقة بين اللغة والعالَم؛ أي على الحالات والمناسبات التي يستخدم فيها اللفظ القرآني، وليس فقط على العلاقات اللغوية الداخلية. سنحاول أن نتصوَّر اللفظة القرآنية محركاً يمكن أن يقودنا إلى ما وراء التركيب اللغوي، كما يمكن أن يقودنا أحياناً إلى مصادر أخرى للمعلومات في داخل النصوص القرآنية، أو إلى البيئة الاجتماعية و(الطبيعية) الأوسع؛ أي إلى "الإطار" الذي تستمد منه الصور القرآنية، والترابطات والتداعيات التي تسهم في تكوين المفهوم.

إن هذا يمثل على وجه التحديد وظيفة المجاز والاستعارة في كل اللغات. فإذا استطعنا أن نتتبع الصور التي تقدمها المجازات والاستعارات القرآنية، فقد نصبح بذلك في وضع يمكننا من الكشف على النسق التصوري القرآني، وما يتصل به من أنساق جزئية مكمّلة له.

وقد يتساءل القارئ: أنحتاج إلى كل هذا الجهد لنُعرّف معنى لفظ محدد من الألفاظ مثل لفظ "الإصلاح" الذي ورد في القرآن؟ ونبادر بالإجابة فنقول إننا لا نبحث عن المعنى اللفظي، وإنما نحاول أن نكشف عن مفهوم، وأن نركّب نظرية، مَثَلُنا في ذلك مَثَلُ أي باحث في أي علم من علوم الطبيعة أو النفس أو المجتمع، فكل واحد من هؤلاء يبحث عن "نظرية" يشرح من خلالها جانباً من جوانب الظاهرة التي يختص بدراستها ويبين أمرها، ثم يحاول في ضوء ذلك التبيين أن يتوقع مسار تلك الظاهرة ومآلها في المستقبل، وأن يتحكم فيه، ليحقق ما يرجو من مصالح عملية. غير أنَّ النظرية الشارحة لا يمكن الوصول إليها إلا من بعد فرز مكونات تلك الظاهرة، ووصفها، وتصنيفها، وترتيبها، ومقارنتها. وللقيام بمثل هذه العمليات يحتاج الباحث إلى "أدوات" نظرية خاصة

° نشير بهذا إلى المدرسة النقدية التي ظهرت في الولايات المتحدة في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي تحت مسمى (New Criticism)؛ تعمّد دعاتها أن يقطعوا النص الأدبي عن خلفياته التاريخية والاجتماعية ليركزوا فقط على مادته اللغوية، انظر تفصيلا لذلك في:

- Culler, Jonathan. *Literary Theory: A Very Short Introduction*, Oxford: Oxford University Press, 1997, p122.

تعرف بـ"المفاهيم"؛ إذ عن طريق المفهوم يستطيع الباحث أن يصف الظاهرة قيد البحث، وأن يصنفها ويعيد ترتيبها، تمهيداً للمرحلة التي يتم فيها بناء نظرية تشرح من خلالها الظاهرة. وغني عن القول إنَّ عملية بناء المفاهيم (من تعريف ونقد وإعادة تعريف) هي الخطوة الأولى التي لا يتقدم علم من دونها.[٦]

إن منهج تحليل المفاهيم القرآنية يلتصق التصاقاً مباشراً بالبحث الأول من أبحاث هذا العدد من مجلة إسلامية المعرفة للدكتور التيجاني عبد القادر حامد، حول "الإصلاح في القرآن: استكشاف المفهوم، وبناء النظرية"، فقد حاول الباحث فيه القيام بتحليل مفهوم الإصلاح في القرآن، ليس على سبيل تمرين في اللغة، بل سعي لاكتشاف المفهوم، وبحث عما عسى أن توجد من علاقة بينه وبين مفاهيم أخرى، وكل ذلك لكي يمهّد الطريق لبناء نظرية إسلامية في الإصلاح الاجتماعي والسياسي، لتُستخدم من بعد لمراجعة المشروعات التي تطرحها حركات "الإصلاح" المعاصرة وتقويمها، وربما تجاوزها.

لكن منهج تحليل المفاهيم القرآنية يتصل كذلك بالبحوث الثلاثة الأخرى في هذا العدد من المجلة، وهي بحوث تعالج ثلاثة من مفاهيم القرآن الكريم: مفهوم النبوة، ومفهوم المعجزة، ومفهوم المشترك الإنساني. ففي بحث "النبوة في القرآن الكريم" للباحثين الدكتور محمد المجالي والدكتور سليمان الدقور، يحاول الباحثان الكشف عن مقاصد القرآن الكريم الأساسية في حديثه عن النبوة وأثرها، وبيان أهمية النبوة ودورها في تحقيق صلة إيمان الخلق بالخالق، وإثبات مدى حاجة الناس إلى النبوة في أثرها المتعلق بوحي القرآن والسنة.

أما الدكتور جمال الدين الشريف فقد حاول في بحثه المعنون بـ: "المعجزة القرآنية في فكر الجابري" أن ينقد فكر الجابري في دراسته للمعجزة؛ إذ كشف عن موقف الجابري

---

[٦] لمعرفة المزيد عن بناء المفاهيم ودورها في بناء النظرية يمكن الرجوع إلى:

- Isaak, Alan C. *Scope and Methods of Political Science*, (Revised ed.) Homewood, IL: Dorsey Press, 1975, pp 63-64.

كما يمكن أيضا الرجوع إلي المادة التي أعدّها فريق بحث بتكليف من المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ونشرت في مجلدين. انظر:

- المعهد العالمي للفكر الإسلامي. **بناء المفاهيم: دراسة معرفية ونماذج تطبيقية**، تقديم: طه العلواني، وإشراف: علي جمعة محمد، وسيف الدين عبد الفتاح، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٨م.

من الإعجاز اللفظي والإعجاز الحسي، وطريقة تعامله مع بعض القضايا الإعجازية مثل: الإخبار بالغيب والإعجاز العلمي، إلخ، ومدى تمثل الجابري للقراءات الحداثية، التي تنال من التراث بشكل عام والنصوص الدينية بشكل خاص.

وفي البحث الأخير في "المنهج القرآني في بناء المشترك الإنساني"، حاول الباحث الدكتور محماد بن محمد رفيع، رصد الأسس المنهجية التي أسَّس عليها القرآن الكريم مفهوم المشترك الإنساني، وتحليلها وتعليلها، مثل الأساس التكويني والأساس التشريعي؛ ابتغاء بناء أسس للتواصل بين مختلف الحضارات والثقافات الإنسانية، على مناحٍ مقاصدية.

وقد تضمن هذا العدد من المجلة إضافة إلى ما سبق، قراءة لكتاب: "الوجود بين السببية والنظام" لمؤلفه الدكتور إلياس بلكا، وقدّمها الدكتور محمد الجندي. وقراءة لكتاب: "فقه المقاصد: إناطة الأحكام الشرعية بمقاصدها" لمؤلفه الدكتور جاسر عودة، وقدّمها الدكتور رائف النعيم.

وثمة دعوة استكتاب لمؤتمر الفن في الفكر الإسلامي، وفي العدد حلقة جديدة من عروض مختصرة لعدد من الكتب التي صدرت حديثاً.

والله من وراء القصد...